د. منجي الكعبي

مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي

يدور شعر المتنبي كله تقريبا حول العظمة والطموح . وهاتان الصفتان في نفس ابي الطيب وفي شعره هما عنوان شاعرنا العظيم ورمز خلوده ، وهما سر ما يلقى شعره من روعة وتاثير في النفوس الى اليوم . ولعله انما ملأ الدنيا وشغل الناس بما صوّره من ذلك في ديوانه وبما اوتيه من عبقرية في فنه ، حتى لا يكاد يعرف الادب العربي شعرا في الاعتداد بالنفس وعلوّ الهمة أبلغ ولا اروع من شعر ابي الطيب المتنبي .

ولقد اتصلت العناية بادب ابي الطيب وبشعره من ايام ابن جني معاصره وشارح ديوانه الاول الى يومنا هذا . ولا شك ان ما كتب عنه حتى الآن من دراسات وبحوث ومقالات يحسده عليها ـ وهو الشاعر المحسد طول حياته ـ كثير غيره من كبار الشعراء . ولقد تالف من ذلك كله ومن شروح ديوانه مكتبة ضخمة تفي في الحقيقة باكثر ما يرغب فيه الباحث من مصادر ومراجع عن المتنبي وشعره .

غير ان ادوات البحث قد تطورت تطورا مطردا بعد تلك الدراسات الرائدة في العصر الحديث عن المتنبي ، واصبح الباحث المعاصر في العلوم الانسانية يرغب ، مثل زميله في العلوم الطبيعية ، في ان يستعين بالكمبيوتر او النظامة لدراسة المتنبي او غيره من الشخصيات ، وبعبارة أصح يرغب في ان يستخدم هذه الآلة لتصنيف معلوماته عن الموضوع وتحليلها وفرزها وفق ما تتطلبه اغراض الدراسة ومقتضيات الوقت . وفي ذلك ضمان اكبر للدقة والجدوى في عمله وربح للوقت لفائدة الملاحظة والتفكير .

ويوم نرى بعض المراكز او الهيئات العلمية تعتني باستخدام الآلة الالكترونية لاستيعاب كل الاخبار المفرقة من المصادر عن الشاعر وشعره وما كتب عليه من شروح ومختلف ما كان للقدامى والمحدثين من آراء عن عبقريته وفنه ، يومئذ تكون قد فتحنا للدارسين فتحا جديدا في مجال فهم المتنبي وتقييم شعره . لكن اين نحن الآن من ذلك ، وليس بين أيدينا سوى فهرس بسيط للقوافي والاشعار ملحق بديوانه ، واما اخباره فلا تزال مفرقة في بطون الكتب ، لم يجمعها حتى الآن كتاب جمعا تاما منظما ؟

ولو كانت لدينا ملكة حماد الراوية في الحفظ او خلف الاحمر او واحد من نقادنا القدامى لما احتجنا الى ذاكرة آلية تساعدنا على غرضنا من شعر المتنبي ، وربما قد تحتاج اليها مع ذلك لنحقق اقصى ما يتطلبه البحث العلمي من تحر ودقة . فلم نجد بدا في هذه الدراسة التي حددتها المناسبة من المضي على الطريقة التقليدية فرجعنا الى ديوان المتنبي لقراءته قراءة كاملة لم تتح لنا من قبل مستفيدين في الاثناء بعدد من الشروح الموضوعة عليه.

لقد سبقتنا دراسات عديدة يعتقد في اغلبها اصحابها انهم وضحوا جوانب كانت غامضة في حياة المتنبي وعصره والقوا لاول مرة اضواء كاشفة عن ملامح شاعريته وخصائص شعره . وبدون شك نعتبرها كلها محاولات طيبة في طريق المعرفة بالمتنبي ، غير انه ليس ما يمنع من مناقشتها والاختلاف معها في بعض النقاط مع الاقرار لها بالفضل والاسبقية فيما تتفق فيه الانظار او تتوارد حوله الخواطر او يولده الحس النقدي المرهف لدى اصحابها .

ان هدفنا من هذه الدراسة ليس محددا من البداية . فليس في نيتنا مطلقا ان نخرج بصورة تكرس المتنبي النموذج في الذهن العربي او تزيف الصورة الرائعة لبطولته وانفته في الوجدان العربي. لكن طريقتنا في هذا البحث احتجنا الى ان نحددها من البداية . فلا هي الاخذ كيفما اتفق من شعره لتحقيق بعض اخباره او تبرير اقوال احد من العلماء والنقاد فيه ؟ ولا هي تسليط افهام الرواة والاخباريين على شعره لبيان معنى من معانيه او دافع من دوافعه . وانما حرصنا في الاول على تحصيل صورة عامة عن شعره من خلال قراءة مستانية لديوانه ، وكذلك على تكوين نظرة شاملة عما آلت اليه البيئة في عصره من تطور وتغيير وما اصبح يخضع له الشاعر عموما في حياته العامة او حياته الشعرية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، مع الاحتفاظ بعنصر آخر مهم جدا ، ركزنا عليه اكثر الملاحظة وتفسير الظواهر العامة والمتميزة من شعره وسلوكه هو عنصر مفهوم الشعر ، مفهومه في العصر العباسي اي لدى النقاد العرب حتى ذلك العصر ، ومفهومه لدى المتنبي بالذات . لاننا نعتقد ان الصورة التي كانت للمتنبي عن حقيقة الشعر واهدافه واغراضه واساليبه هي المفتاح الذهبي لحل كثير من مشكلات شعره وشخصيته .

وبذلك يمكن ان تسلم الدراسة الادبية من كل اعتساف في الفهم والتقييم يحول دون الرؤية العميقة والمجردة لصورة الشاعر وابعاد شعره . وهو الهدف من هذه الدراسة في الواقع ، ويبقى من حقنا بعد ذلك ان نحكم للمتنبي او عليه بما شئنا من المقاييس الادبية والانسانية المعاصرة .

* * *

ما هي ابعاد الطموح الذي يعبر عنه المتنبي وابعاد اعتداده بنفسه؟ وما هي الدواعي الظاهرة والخفية لذلك ولما ورد في شعره من تحد

صارخ للقيم والناس والاشياء ؟ وما هي حقيقة ما يصوره الشاعر من ذلك في شعره بما في نفسه وسلوكه ؟ وما موقع ذلك الشعر من النفس العربية عموما ؟ واخيرا ما هو مدى تأثيره في الانسان العربي اليوم واهميته في تشكيل حاضره وصنع مستقبله ؟

ونحن نقدر مبدئيا ان الطموح والعظمة ظاهرتان نفسيتان واجتماعيتان متداخلتان بشدة في كيان الفرد . وهما اساسا لا يعدوان غريزة حب الذات او تأكيد الذات لدى الانسان ، وهي من الغرائز العامة في البشر بحسب ما يؤكده قانون تنازع البقاء والبقاء الافضل . ومن هنا فالعلاقة بين الاحساس بالعظمة ونزعة الطموح علاقة تكاملية ، وتستتبع حتما الواحدة منهما الاخرى .

والملاحظ ان الشعور بالعظمة وما يستتبعه من طموح وتطلع للمجد لا يطفو على سطح الفرد الا اذا صادف صاحبه مناخا ملائما للتعبير عن ذاته بحرية وتحلل ، وبالعكس فقد ينطلق هذا الشعور المزدوج من اغوار الذات فجاة نتيجة كبت وحرمان طويلين .

وقد تشكل هذه الظاهرة على اية حال حالة مرضية لدى الفرد خصوصا اذا كان حجمه الاجتماعي ومؤهلاته والظروف المحيطة به لا تسمح له بتجسيم شيء من طموحاته البعيدة في الواقع العملي ، ويعجز معها على فرض احترامه في نفوس الاخرين .

وبدون ان نطنب في تحليل شيء من انواع العقد والامراض النفسية ودوافعها وعوارضها لدى الفرد وما الى ذلك ،مما هو موضوع مؤلفات متخصصة ، نلفت النظر الى ان العبقرية بجميع صورها لا تخرج في نظر عامة علماء النفس عن كونها حالة مرض او شذوذ، قد تختلف تأزما او قد تختلف حدة وضعفا . وقد تسبب انفصاما في الشخصية . والملاحظ مع ذلك انه بقدر ما يستطيع الفنان التنفيس عما يعتمل في داخله من اوار العبقرية والابداع بقدر ما يوفق الى حفظ توازنه النفسي والصحي ، وبالتالي بقدر ما يحقق ذاته في الخارج .

فالفن لذلك مجال طبيعي ومأمون في الغالب لتحقيق نزعات الفرد في اشكال مختلفة . والفن والحلم صنوان ، كلاهما عالم فسيح لاطلاق النزعات الفردية الكامنة في النفس . بيد ان الفرق بينهما هو ان الفنان يقوم بعمله واعيا ومقيدا في ذلك ببعض القيود . والفرق الاخر هو ان الفنان لا يستشعر بعد تحقيق عملة الفني الا بالانشراح والراحة ولذة اصابة الهدف ، بينما المستيقظ من حلمه يخرج منه كالمطرود من الجنة ويظل لا يتمنى غير ان يعاوده ذلك الحلم اللذيذ او يعود اليه .

ولا يخرج المتنبي عن حالة فنان عظيم منحه الشعر فرصة التعبير بقوة عن دخائل نفسه واحساسه ازاء الناس والحياة . وقد تكون صاحبته في حياته اعراض مرضية نفسية نتيجة ما يحمله من هموم نفسه او من هموم ما يعبر عنه . ولا نجد من ذلك ما تدل عليه اخباره واشعاره ، اللهم حالة نحول لازمته وخبر تلك الحمى التي اضنته حين كان في اوج ازمته بمصر ، مع ما عرف عنه من حدة وقلق في الطبع .

ثم ان الشعر عامة اوسع مجالا للتعبير عن عواطف صاحبه، بل لقد كان القدامى يعتقدون ان الشعر هو فن القول الوحيد الذي للشاعر فيه مخاطبة الملك باسمه مجردا وباسم امه وبكاف الخطاب للشاعر فيه الافتخار بنفسه امامه . وربما بالغ بعض الشعراء او تسامح بعض الممدوحين اكثر من ذلك للشاعر .

ان كل ما تثيره حياة المتنبي وشعره من مشاكل وتساؤلات في وجه الدارسين يمكن ان تعنينا هنا ، غير ان ابرز ما يهمنا من ذلك القول في نسبه وبيته ، وكذلك القول حول تنبؤه ومعتقده وموقفه من البداوة والعرب وغير العرب واخيرا علاقاته بممدوحيه .

ولقد كان للقدامى والمحدثين آراء وظنون مختلفة في كل ذلك ، وكلهم يستند في الغالب الى شيء من شعره وبعض اخباره لتدعيم رأيه او ترجيح ظنه ، غير اننا لاحظنا في بعض التفسيرات شططا وتجاوزا في المقارنة والحكم احيانا . وربما اوقعت الغفلة عن ملاحظة السياق في عدد من الابيات المشكلة من شعره في غير قليل من الوهم والقلق ، قد يكون سببه ايضا نوع من التصور غير الدقيق لحقيقة الشعر وقضاياه في ذلك العصر .

ففي نسبه يروي الخطيب البغدادي عن علي بن المحسن عن ابيه انه قال : « سألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : انا رجل اخبط القبائل واطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن ان ياخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي انتسب اليها . وما دمت غير منتسب الى احد فانا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » .

فمن هذا الخبر ومن قول المتنبي في بيته المشهور :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبيته الاخر في رثاء جدته لامه :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد ... لكان اباك الضخم كونك لي اما

تولد ذلك الرأي الشائع الذي يقول بان المتنبي لم يكن ذا نسب نابه ولذلك لم يكن له فخر الا بنفسه .

لكن الا يصعب تصديق هذا الامر قبل التحقق من الخبر وتوضيح المراد من البيتين المعنيين ، ما هي علاقة صاحب الخبر وهو المحسن التنوخي بالمتنبي ؟ وهل كان يجهل حقا نسبه حتى يتحرى عنه عند الشاعر نفسه ؟ وثانيا هل كان جواب المتنبي جواب المغالط او الصادق في قوله ؟

كل هذه الاسئلة ستبقى قطعا بدون جواب . لكن هل كان المتنبي حقا يعتقد ان عدم الانتساب آمن له واسلم من الانتساب الى القبيلة التي ينتمي اليها ؟هذا ما نشكك فيه ، لان معرفتنا بالتقاليد العربية في الحل وفي السفر في ذلك الحين تجعلنا في ريب مما ورد في ظاهر ذلك الخبر . وهو خبر لا يدل على كل حال على اصل غير مشرف للمتنبي . اما قوله :« لا بقومي شرفت بل شرفوا بي » فهو حقا بيت يدل على لؤم النسب ، لكن الشاعر لم يقتصر عليه بدليل ما قال بعده :

وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريد

وقد تفطن لذلك الواحدي فقال في شرحه للبيت الاول : « لو اقتصر المتنبي على هذا البيت لكان ألأم الناس نسبا ، لكنه قال بعده البيت التالي » . ومع ذلك فما تكون اهمية المتنبي وبلاغته وقدرته على المديح اذا كان قد اعجزه ابراز قومه في حلة من الافتخار والمجد ، وهو الذي لم يعجزه تصوير كافور في سواده بين الملوك كالفرس الادهم في طليعة الجياد ؟!

اما قوله في البيت الاخر عن جدته :

فلو لم تكوني بنت اكرم والد ... لكان اباك الضخم كونك لي اما

فهو احدى مبالغاته التي قد تصل به الى حد الاحالة في المعنى . وهو على كل حال لا يعني فيه انه غير كريم النسب من جهة امه ، وانما يريد لو قيل لجدته يا ام ابي الطيب لكان ذلك نسبا لها عظيما . وتقوم طرافة البيت على انه عكس الوضع في النسب، فجعل الاجداد ينتسبون للاحفاد بدل ان ينتسب الاحفاد للاجداد !

وبالاضافة الى ما يقال عن صفة نسب المتنبي التي شككنا في امرها يقال كذلك انه من اسرة وضيعة — وبعضهم يخفف فيقول متواضعة — دون ان نعرف في الحقيقة من امر هذه الاسرة الا ان والده كان سقاء ، ومات فما رثاه بكلمة واحدة . ولكن حتى هذه المعرفة لا تثبت امام النقد . ذلك ان نسبة السقاية الى والده فهمت ربما مع بعض التجاوز من قول من روى في ترجمته ان محلة كندة التي ولد

بها المتنبي بالكوفة كان « بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء ونساج » ، وربما ساعد هذا الفهم كذلك ما روي من شعر في هجاء المتنبي قاله بعض شانئيه . ولكن حتى هذا الشعر نسبة السقاية فيه ليست لوالد المتنبي بل للمتنبي نفسه ، يقول الضبي وهو احد من هجاه من شعراء عصره :

الزم مقال الشعر تحظ بقربة — وعن النبوة لا ابا لك فانتزح

وقال فيه شاعر اخر :

اي فضل لشاعر يطلب الفضـ — ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع في الكوفة الما — ء وحينا يبيع ماء المحيا

وهجاه ابن لنكك البصري لما سمع بقدومه بغداد راجعا من مصر:

لكن بغداد جاء الغيث ساكنها — نعالهم في قفا السقاء تزدحم

ومع ذلك ، فما كل من هجي بشيء الا وكان ما هجي به حقا فيه . كما قد يكون من هجاه من الشعراء بالسقاية انما يريد هجاءه بالمحلة التي ينتسب اليها والمعروفة بكثرة ما بها من السقائين، دون ان يكون والد المتنبي بالضرورة سقاء . على اننا في حاجة الى ان نتحقق من هذا الرقم الضخم من الروائين والنساجين بمحلة كندة ووضعية هذه الحرف في هذا الزمن بالكوفة ..

وحتى على فرض ان المتنبي مطالب بقصائد في رثاء والديه والا شككنا في مكانتهما من نفسه ، فلا بد ان نلاحظ ان الرثاء لا يكون الا عند الفجيعة لا بعد مرورها . ومعروف ان ابا الطيب فقد والديه الاثنين معا في صغره ، فكيف نبحث عن رثاء له فيهما ، فضلا عن كون ديوانه لم يحتفظ لاسباب فنية في الغالب الا بقليل مما قاله في صباه ؟ ونحن لا نفسر قصيدته الميمية الرائعة التي قالها في رثاء جدته بكونه كان مدينا لها بالكفالة دون ابويه ـ كما قيل فحسب ـ بل الغالب في تقديرنا ان يكون قد قالها وخلدت في ديوانه لانه كان وقتها شاعرا عظيما ومن الطبيعي ان تجيء تلك القصيدة في مستوى الجودة التي بلغتها سائر قصائده . ومع ذلك فهذه القصيدة غريبة كل الغرابة . فهي ليست خالصة للرثاء . اذ يجري المتنبي كل ابياتها تقريبا في مدح نفسه ، ولا نكاد نرى فيها شيئا من تعديد فضائل الميت كما هو المعهود في قصائد الرثاء . اللهم ما يؤكد عليه الشاعر من تعلقها الشديد بحفيدها واعتزازها البالغ به ،وحتى ذلك ، فانه يخدم غرض المدح اكثر من الرثاء .

اننا اميل الى ان نرى هذه القصة التي حيكت حول نسب المتنبي واسرته وتصويرهما في صورة لا تبعث الشاعر على الفخر بهما انما نسجها خيال بعض الاخباريين والشراح من خيوط واهية في الاصل. وذلك للتفخيم من صورة المتنبي وتفسير جوانب من نبوغه وشعره .

ونرى ان تلك القصة اصبحت تخدم ذلك الغرض في نفوس الاجيال عن طريق امرين مهمين : عن طريق المقابلة والتناقض بين ما كان عليه المتنبي في اصله وبين ما اكتسبه من مجد لنفسه، والامر الثاني هو انها تعطي تفسيرا نفسيا مغريا عن طريق عقدة التعويض لتعليل ظاهرتي الطموح والعظمة اللتين طفتا على شعره وجاءتا باشكال مبالغ فيها كثيرا .

ودون ان نخدش في هذه الصورة غير التاريخية مع ذلك نريد ان نلاحظ ان قضية النسب في عصر المتنبي لم تبق بنفس الحدة التي كانت عليها قبل عصره ، وربما بمدة طويلة ، فلم يعد هناك اثر يذكر في الشعر لذلك التلاحي بالنسب الذي نعرفه في الجاهلية وحتى الى عصر الدولة الاموية . كما اننا نريد ان نلاحظ كذلك ان المنطق الاجتماعي في ذلك العصر يقضي باعتبار المرء صورة لاصله ـ على الاقل كما يعتقد في نفسه ـ ان كان اصله خيرا ففعله حميد ، وان كان العكس فالعكس . ونجد للمتنبي نفسه تعبيرا عن هذا الفهم السائد لعلاقة الفرد باصله في قوله من قصيدة يمدح بها ابا القاسم طاهر بن الحسين العلوي :

اذا لم تكن نفس النسيب كاصله
فماذا الذي تغني كرام المناصب

اي كرام الاصول .

ولذلك كله لا نستطيع ان نرد مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي الى شعور بالتعويض عن خساسة اصله ، ما دام ذلك لا يقوم عليه دليل . بل ان اختلاف ابي الطيب صغيرا الى كتاب فيه اولاد اشراف الكوفة ، ووقوعه بعد ذلك الى خير بادية ـ بادية اللاذقية ـ وحصوله في بيوت العرب ، وادعاؤه النبوة في الحداثة ، كل ذلك دلائل تدعو بالعكس لتصحيح الصورة التي اشيعت ـ خطأ ووهما كما بينا ـ عن نسب المتنبي الوضيع واسرته المتواضعة . ويمكن بالتالي ان نفسر او نرد مركب الغرور وعقدة الاستعلاء التي استحكمت من نفسه منذ الصغر الى فقد امه . فلا شك انه اصيب بحالة يتم مبكر ولدت في نفسه نقمة عارمة ، فنشأ منافرا متابيا مغالبا للصعاب. كما قد يكون فقدان والده بعيد ذلك قد اثر في تكوينه وعلاقاته بالناس ونظرته للحياة ، يضاف الى ذلك ما قد يكون من تعرض اسرته وهو دون الحلم للهجرة من الكوفة بسبب اغارة القرامطة عليها . كل ذلك لم يكن بدون شك ليمر بابي الطيب دون ان يترك على صفحة وجدانه الشاعري آثارا غائرة توجه تيار مشاعره العاصفة وتكيف سحائب سلوكه الحاد .

اما ما ورد في اخبار المتنبي عن ادعائه النبوة واتباع قوم في بادية السماوة له ونزول قرآن عليه وظهور معجزات على يديه ـ كل ذلك وما شابهه نعتقد انها اخبار حول لقبه ، وكلها جاءت بآخرة لتفسر سبب تلقيبه بالمتنبي . وهو لقب من الثابت انه حمله منذ صباه ، ولم يلقبه به كبير من كبراء قومه او عظيم من عظماء عصره، ولا نعرف انه تأفف منه طول حياته .

وهناك مثل ذلك الخبر الذي يزعم صاحبه فيه انه سأل المتنبي عن نسبه فكتمه اياه خبر اخر يزعم صاحبه ـ وهو المحسن التنوخي صاحب الخبر الاول ـ انه سأل المتنبي عن صحة تنبؤه فاجابه ابو الطيب جوابا مغالطا ، يقول التنوخي : « فاما انا فسألته بالاهواز سنة ٣٥٤ عند اجتيازه بها الى فارس في حديث طويل جرى بيننا عن معنى المتنبي ، لاني اردت ان اسمع منه هل تنبأ ام لا ؟ فاجابني بجواب مغالط لي وهو ان قال : هذا شيء كان في الحداثة »

وربط بعض الاخباريين المتأخرين وهما بين ما وقع لابي الطيب وهو بالشام من اعتقال وبين ادعائه النبوة . بينما ابن جني ـ وهو معاصر له وعارف بالكثير من احواله ـ يؤكد ان المتنبي اتهم بالخروج على السلطان . يقول ابو الفتح :« وكان قوم قد وشوا به الى السلطان في صباه وتكذبوا عليه ، وقالوا له : قد انقاد له خلق كثير من العرب وقد عزم على اخذ بلدك ، حتى اوحشوه منه فاعتقله وضيق عليه فكتب اليه يمدحه » .

ومع ذلك فالخروج على السلطان في ذلك الحين لا يكون الا بدعوة او التهمة باظهار دعوة من الدعوات ، فما تكون دعوة المتنبي ؟ ان ادعاء النبوة لم يكن من سلاح الخارجين في ذلك العصر. بل ان اكثر الدعوات في ذلك الوقت شيعية وكانت رائجة خصوصا من امثال ابي الطيب لكوفيته وعلويته او ميولـه العلوية الثابتة . وكذلك نستغرب ان تكون دعوى المتنبي ـ ان كان دعا لنفسه حقا ـ هي دعوة النبوة . واذا كان لا بد من اصل لهذه الوشاية وهذا التكذب عليه ، فلا نجد افضل من حسبان ذلك من ما عرف به من بعد الهمة وسحر القول . وهما امران كانا كافيين ليؤلبا على صاحبهما المغرضين ويغيرا قلب السلطان على كل من يحملهما . فما ادراك اذا كان صاحبهما من اهل الكوفة وطرأ على الشام طروءا ؟

ونستطيع ان نجد في كلام الثعالبي ما يؤكد ظننا ، يقول ابو منصور : « انه بلغ من كبر نفسه وبعد همته انه دعا قوما من

رائشي نبله ، على الحداثة في سنه والفضاضة من عوده ، وحين كاد يتم امر دعوته، تادى خبره الى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج ، فامر بحبسه وتقييده » ثم يقول بعد ذلك : « يحكى انه تنبأ في صباه ، وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه ». ولايتحدث ابو القاسم الاصفهاني الا عن فضول نبز به فنمي خبره الى امير بعض اطراف باديه اللاذقية فحبسه .

بل نحن ننكر ان تكون دعوى النبوة واردة في حبسه ،لامرين على الاقل ، الاول هو انه ليس في ما كتب به من شعر يستعطف فيه الوالي الذي سجنه ذكر لادعاء نبوة او شبهها بل نرى الشاعر ينتصل فيه مما رمي به من تهمة الخروج عليه بل نية الخروج عليه فحسب .

والامر الثاني هو انه من المستبعد ، وهو في محل التهمة بدعوى النبوة ان يشبه حاله من جديد بقوم صالح وثمود . وذلك في قوله :

وفي جود كفيك ما جدت لي   بنفسي ولو كنت اشقى ثمود

والطريف ان المتنبي بعد ان شبه هنا نفسه بعاقر ناقه صالح اشقى قوم ثمود يعكس الآية في بيته المشهور :

انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

لكننا كذلك نخالف من يقول ان تلقيبه بالمتنبي كان بسبب هذا البيت ، مع ان هذا الرأي ينسب لابن جني . لاننا قد راينا ان ابا الطيب لم يرو عنه انه بين لاحد معنى لقبه . ولان ظاهرة التمثل بالانبياء نفسها كثيرة التردد في شعره بشكل غريب . وربما الاصح ان نفسرها بكونها نتيجة لهذا اللقب لا سببا له .

ومن هنا رأينا في القضية المتنبي والنبوة بانه لم يكن هناك ادعاء حقيقي للنبوه من قبل المتنبي وانما هي محاولات مختلفة لتفسير معنى لقبه . ورأينا ان تلقيبه بالمتنبي كان حقيقة في الحداثة اي على معنى صباه الاول وهو في الكوفة وبين اترابه وفي كنف اهله ، قبل ان ينتقل الى الشام او غيرها ، وربما كان تلقيبه بالمتنبي لاول ما اظهر الله سحر الشعر على لسانه . وربما يكون انما لقب بذلك تيمنا وتبركا بالرسول لا ادعاء او تطاولا على مقامه صلى الله عليه وسلم او دعوته السامية .

ثم ما رأيك في حدث تنزل عليه ملك الشعر او شيطان الشعر في قوم نعرف موقع مكانة الشاعر من نفوسهم ، حتى لقد تخلد في اذهانهم واذهان اجدادهم خاصة ان كل شاعر نبي في قومه الا ان يكون غير ذي دعوة ، وكل نبي شاعر حتى يبرئه الله من ذلك ويحقق دعوته .

ولعل مما ساعد على اطلاق لقب « المتنبي » عليه تسميه باحمد وهو اسم الرسول في القرآن وتكنيته بابي الطيب ، والطيب هو احد ابنائه عليه الصلاة والسلام . ولا ننسى مع ذلك ان المتنبي عاش في وسط هو وسط اشراف العلويين بالكوفة وان جدته التي كان في حضانتها كانت احدى صلحاء النساء الكوفيات .

ونلتقي في النهاية براي طريف للنهشلي القيرواني في كتابه الممتع ، وعنده ان « احمد بن الحسين المتنبي قيل له المتنبي لفطنته» وهو راي نجد ابن رشيق ينوه به في العمدة ، والواقع ان اغلب المحققين القدامى لا ياخذون بخرافة ادعائه النبوة ، ويردون لقبه الى ما تميز به من فطنة ، وخاصة في الشعر منذ صغره . وبحكى ـ وهي حكاية تصدق راي النهشلي ـ أن المعتمد بن عباد صاحب قرطبة واشبيلية انشد يوما في مجلسه قول المتنبي :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له   اذا لم يكن في فعله والخلائق

وجعل يردده استحسانا له وفي مجلسه ابو محمد عبدالجليل ابن وهبون الشاعر الاندلسي فانشد ارتجالا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما   بقدر العطايا واللها تفتح اللها
تنبأ في نظم القريض ولو درى   بانك تروي شعره لتالها

ونقل حازم القرطاجني عن ابن علي بن سينا « ان العرب كانوا ينزلون الشاعر منزله النبي فيتعادون لحكمه ويصدقون بكهانته »

ولكن ما نعلمه بعد ذلك على تلقيب ابي الطيب بالمتنبي هو ما يكون قد تركه هذا اللقب من أثر في نفسه وسلوكه وشعره . اذ لا اقرب من ان يكون قد ملأه هذا اللقب الفخم اعجابا بنفسه وقوى لديه شعور التفوق على سائر البشر . وربما لكونه غير نبي على الحقيقة ولا على المجاز ولا حتى بالادعاء لا نراه يستغفر للناس أو يستشفع لهم او حتى يظهر مجرد التسامح معهم بل نراه بالعكس سيء الظن بالناس جميعا كثير التسخط عليهم . وربما بسبب ذلك ايضا اكثر في شعره من تشبيه غربته في قومه وفي فنه وفي الحياة عامه بغربة الانبياء والمرسلين ، كقوله :

ما مقامي بارض نخلة الا   كمقام المسيح بين اليهود
وقوله : تيممني وكيلك مادحا لي   وانشدني من الشعر الغريبا
فاجرك الاله على عليل   بعثت الى المسيح به طبيبا

ولم يكن المتنبي يقتصر في الحقيقة على تشبيه نفسه فقط بالانبياء بل قد تجره المبالغة في المدح احيانا الى تشبيه بعض ممدوحيه بصفات الانبياء وبما هو أعظم ، كأنه بذلك يريد أن يسرك ممدوحيه بما هو من صفاته وخصائصه تكريما لهم او لنفسه بهم . ومن ذلك ما يقوله في مدح محمد بن زريق الطرسوسي :

لو كان ذو القرنين اعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا
او كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لاعيا عيسى
او كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى
او كان للنيران ضوء جبينه   عبدت فصار العالمون مجوسا

ويبدو ان حاديه الاكبر في رحلة الطموح والعظمة هو هذا اللقب الذي حمله منذ صباه فكان يحدوه بقوة وبدون هوادة في سائر احواله وشعره . وقد نستطيع على ضوء ذلك أن نفسر ما وصف به ابو الطيب من التهور والتجاسر وحدة الطبع .

الا ان تعامل الشاعر بهذه الصورة مع سير الانبياء وعدم انكار احد من الممدوحين عليه ذلك لنفسه او لهم ، يدعونا الى ان نفكر في ان الوسط الثقافي والديني عامة كان متسامحا مع الشعراء فيما يقولون . وكان اكثر الناس يحملون مبالغاتهم محمل الفن ويجرونها مجرى الجوازات والضرورات الشعرية ، ولا بد ان يكونوا اكثر تسامحا مع من كان ذلك ديدنه وهجيره كالمتنبي . ونقول ذلك لاننا لا نرى كيف يمكن ان نرد المسالة الى موقف اعتقادي معين . والحال ان ابن جني وغيره ممن لاحظ ذلك في شعر المتنبي لم يعل الا انه « كان يتجاسر في الفاظه جدا » :

ولم يكن ذلك منه عن تشيع فيه لان شعراء الشيعة والاسماعيلية لا يمدحون من دون أئمتهم بصفات الانبياء ، بينما نجد المتنبي يمدح نفسه وغيره بما هو فوق ذلك احيانا بالتشبه بالخالق . من ذلك قوله يمدح الاوراجي الكاتب المتصوف :

واذا مدحت فلا لتكسب رفعة   للشاكرين على الاله ثناء

وقوله في سيف الدولة مع الاعراب الخارجين عليه :

ولكن ربهم اسرى اليهم   فما نفع الوقوف ولا الذهاب

وقال يصف كيف استقبله ممدوحه وصفا يذكر بما وصف به الله تعالى نفسه على العرش :

فلما جئته اعلى محلي   واجلسني على السبع الشداد

وقوله يمدح عبيدالله بن يحيى البحتري :

فكن كما انت يا من لا شبيه له   او كيف شئت فما خلق يدانيكا

وقوله يمدح شجاع بن محمد الطائي :

كن حيث شئت يسر اليـك ركابنا   فالارض واحدة وانـت الاوحد

وقال يمدح المغيث بن العجلي :

واعطيت الذي لـم يعط خلـق   عليـك صلاة ربـك والسـلام

وقد كثر الطعـن على المتنبي بسبب ذلك الشعر وغيره في كتب بعض شراحه ، من ذلك ان الواحدي توقف متحرجا عند قول ابـي الطيب :

أي محـل ارتقـي ؟   أي عظيـم أتقـي
وكـل مـا خلـق الله ومـا لـم يخلـق
محتقـر فـي همتـي   كشعرة في مفرقي

فقال: قوله وما لم يخلق،ليس معناه ما لا يجوز ان يكون مخلوقا كذات الباري عزوجل وصفاته ، لانه لو اراد هذا للزمه الكفر بهذا القول،وانما أراد ولم يخلقه مما سيخلقه بعد، وان كـان قد لزمه الكفر باحتقـاره خلق الله وفيهم الانبياء والمرسلون والملائكة المقربون » .

ونحن نعتقـد ان المتنبي، وقد قال هذه الابيات ارتجالا في صباه، لم يفكر مطلقـا في شيء من المعنى الذي استنبطه منهـا بكل تفقـه الواحدي ، فضلا عن كون حديث الخلق في البيت الثاني متعلق في الحقيقة بمحل وبعظيم وليس بانبياء ولا ملائكـة واحرى بالله . ومع ذلك فذكر الله في البيت نفسه لا يدل على تجديف في حق الخالق، وانمـا يريـد ابو الطيب في اندفاع صبياني ان يقول ان همتـه لا تعجز عـن ارتقاء كل محل رفيع ولا نهاب دون ذلك احدا ولا عظيما . فانت ترى ان الواحدي استحضر كل علمه بالدين ونسي شخصيـة المتنبي وما يحيط بها من تحديات كتب الشاعر على نفسه ان يرفعها.

وكذا الاصفهاني ابو القاسم فيكتابه« ايضاح المشكل في شعر المتنبي» فقد قال عنه « هـو في الجملة خبيث الاعتقاد » ، وردّ ابياتا عديدة من شعره الى مذاهب المتفلسفة والسفسطائية والتناسخ والقضائيـة والشيعة والحشيشية وغيرها ، ثم يقول وكانه يعرّض به : « والانسان اذا خلع ربقة الاسلام عن عنقه واسلمه الله عزوجل الى حوله وقوتـه وجد في الضلالات مجالا واسعا ، وفي البـدع والجهالات مناديـح وفسحا » .

لكـن التكفير بالشعر في تاريخ الادب العربي ليس مذهب قلة من النقاد في عصر المتنبي وفي غير عصره بل هو مذهب قائم في كـل العصور وله دعاته من انصار التادب حتى في الشعـر بآداب الديـن واعتبار مـا يلزم نحـو ذات الله وصفاته والانبياء ورسالاتهم والملائكـة والاولياء والمقربين . وتلـك مدرسة مشهورة في النقد العربي تقابلهـا وتساجلها احيانـا الغلبة مدرسة اخرى يرى اصحابهـا ان الشعر فـي حل من الدينيات لاسباب بلاغية صرفـة لا لامر اعتقادي راجع لايمـان قائله او منشده . ونجـد ابن جني يدافع في هذا الشـان عن المتنبي دفاعـا حارا . فحيـن عرض الى قول المتنبي يمـدح أحد الفاطميين :

وابهر آيات التهامـي انـه   ابوك واجدىمالكم من مناقب

قال أبو الفتح : « قد اكثر الناس القول في هذا البيت وهو في الجملة شنيع الظاهر . وقد كـان يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار منه بما لست اراه مقنعـا ومع هذا فليست الاراء والاعتقادات في الدين مما يقدح في جودة الشعر ورداوته » .

ومن غريب ما نلاحظه في هذا البيت انـهصورة مكررة للبيتالذي توقفنـا عنده سابقـا في رثاء جدته حيث جعلها تفتخر بانتسابهـا اليه بـدل العكس :

ولـو لم تكوني بنت اكرم والـد   لكان اباك الضخم كونك لي اما

فهو في هذا البيت كذلك جعل على الظاهر ممدوحه الفاطمي يفتخر بانتساب الرسول اليه . وكان العكس بطبيعـة الحال هو الاليق لان علمـاء الديـن لا يحكمـون الا بالظاهر . غيـر ان العروضي وهو احد شراح المتنبي ذهب في تفسيـر هذا البيت مذهبا طريفـا لا يخلو مـن اقناع حين قال عنه :« هذا بيت حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لـو قلت انه امدح بيت في الشعر لم ابعد عن الصواب ، ولا ذنب لـه اذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم »ومعنى البيت عند العروضي ، ان كفار قريش كانـوا يقولون ان محمداً صنبور ابتر ـ اي منفـرد لا عقب له ـ فانزل عليه الله : « انا أعطينـاك الكـوثر » ـ اي الكثير واما شانئك فهو الابتر فقال المتنبي : انتم معشر الفاطميين من معجزات النبي وآيـة لتحقيق قول الله فيه .

ومع ذلك فابن جني انما دافع عن الشعر ان يدخل الدين فـي مقياس جودته ورداءته لا على المتنبي وصحة اعتقـاده او سلامته . وبامكاننـا ان نلتقط اشارات اخرى من شعـره نقفي بهـا على آثار الاصفهاني ، تدل على رقـة ديـن المتنبي . اهمها غياب ذكر الجنـة والثواب والعقاب في مرثياته وفي كل تاملاته فيمـا بعـد الموت ، غير انه من الصعب ان تقبل ان المتنبي كـان في الوقت نفسه شيعيـا وسفسطائيـا وحلوليـا وقضائيـا ، ولا يمكـن ان نتصور كالاصفهاني ان ابا الطيب كـان وعاء لجميع المعتقدات التي ذكرهـا في شعـره . وانما المسالة في تقديرنـا ان الشاعـر استعمل كل ثقافته الفكريـة بدون تحرج بل احيانـا بكل صلف ، وركبهـا لكل اغراضه واظهـر منها بحسب من يتجه اليهم في شعره ، لا بحسـب مـا يمليـه عليـه اعتقـاده . وهذا ديدن اغلب الشعراء من قديم الزمـان .

وان كـان من سؤال عن اعتقاده هو ، لا عن اعتقادات من يتحدث اليهم او يشبه باعتقاداتهم في شعره ، فجدير بنـا ان نلاحظ اولا ان الادب العربي يحفل بامثلـة الشعراء الزنادقة ، ولم يكونوا كلهم علـى الزندقـة في الحقيقـة . وانمـا هي مذاهب الشعر ذهبت ببعضهم كل مذهب ، وكـم شاعـر اودى به لسانه .

وحين كان النصف الاول من القرن الرابع ، في عصر المتنبي ، كان الاخذ بالزندقة قد خف بل كان ينقطع ،وتحلل الشعراء من ربقة الفقهاء وتقاضى السلاطين عن مجازفات شعرائهم واحـالاتهم طلبـا لمديحهم ورغبة في المنافسة بهم .

وكان الناس قد عرفوا المتنبي منذ اول عهده بالشعر على غايـة من الفضول و « التهور » في الفاظه ومعانيه، وكانوا قد عرفوا كذلك ان نفسه قـد يكـون سكنهـا شيطـان الشعـر او شيطـان الغـرور ولن يبرحها ابدا حتـى يبرح روحه جسده . وربمـا لذلك احتملوا منه مـا لا يحتمل من غيره لروعـة شعره وسحر بيانه .

ونحن نعتقـد بصورة عامة انه من اتصعب البحث عن اعتقـاد معيـن لشاعـر من الشعراء لان طبيعة الشاعر مجافية للعقيدة العامة وخاصة في حالة شعراء كبار من امثال المتنبي والمعري وبشار . فلم يكن للمتنبي قلب يعرف الاطمئنـان والخشوع والضراعة طريقا . ولـم يوصف ولا شوهد من احواله الا عكس ذلك . فقد كان بحق كمـا وصف احدهم « صاحب ضجرات واختيارات » . ويمكن استعارة هذا البيت من شعـره لتمثيل حاله اصدق تمثيـل :

كريشة بمهب الريـح ساقطـة   لا تستقر على حال من القلـق

او قولـه يتحدث عن نفسه :

ومـا انا غير سهـم فـي هـواء   يعود ولم يجد فيـه امتساكا

ومع ذلك ، فلم يتنك المتنبي لحظة في الاسلام او يشكك في دين من اديـان الله ، ولكنه عرض في شعـره لكثير من المسائل الاعتقادية، ربمـا برايه احيانا واحيانا بغير رايـه . وليس يمنع الديـن ذلـك على احد ، فما بالك بشاعر .

ومعذلك ايضا فلقد كان المتنبي حياته كلها، خيرا من كثير مـن اهل زمانه ، من الشعراء وغير الشعراء ، ممن كانوا يراوحون فيحياتهم بين الخلوة المحظورة والخلوة للعبادة . فلم يعرف عن ابي الطيب انـه كـان يومـا من انسائه او جلسائه الخمر او النساء او الغلمان . وقد عزا بعض الدارسين ذلك الى مذهب يعتقده ، لعلـه المذهـب القرمطي . ومن المحتمل في رأينـا ان يكـون سبب هذا الانصراف غير

مذهب بعينه . بل هو امر راجع الى مزاجه وما جبلت عليه نفسه . لانه في المرات التي عرض فيها لهذه اللذائذ في شعره لم يظهر تحريما بشأنها او كراهة لها في ذاتها . بل نستشف من ردود فعله ازاءها بانه كان يملك نفسه ملكا شديدا عن مواطن الابتذال والاذلال والتعرّض للاعراض . ونحن نعرف انه لم يكن شيء في نفس المتنبي ابغض له من الاشتراك والناس في حالة واحدة ، حتى لقد عرّض ببدر بن عمار ، وكان كل مرة ينقطع عن الخمر ثم يعود اليها وتصبح حاله فيها وهو ملك كحال غيره ، فقال له :

ايها الملك الذي ندماؤه　　شركاؤه في مِلكه لا مُلكه

ولو كان المتنبي حرّم على نفسه شرب الخمر لاعتقاد صميم يعتقده لما ترخص لنفسه مرة واحدة تحت الحاح بعض ممدوحيه وشرب للود. ونحن نجد في ديوانه انه سقاه بدر بن عمار ولم يكن له رغبة في الشراب فقال :

لم تر من نادمت الا　　ك لسوى ودك لي ذاك
ولا لحبيبها ولكني　　امسيت ارجوك واخشاك

ومن ديوانه ايضا انه عرض عليه محمد بن طغج الشرب فامتنع فاقسم عليه بحقه فشرب وقال :

سقاني الخمر قولك لي بحقي　　وود لم تشبه لي بمذق
يمينا لو حلفت وانت ناء　　على قتلي بها لضربت عنقي

ويبدو ان بدر بن عمار كان لجّ عليه مرة في شرب الخمر عنده ، فلم يجد المتنبي بدا من ان يصانعه هنيهة لم يلبث بعدها ان تظاهر بالاشفاق على وعيه وتخلص منه حتى لا يغاضبه بهذين البيتين:

نال الذي نلت منه　　لله ما تصنع الخمر
وذا انصرافي الى محلي　　أآذن ايها الامير ؟

ولعله بعد هذه الحادثة يمكن ان نضع هذه الابيات التي جاء في مقدمتها بديوانه : انه عرض عليه بدر بن عمار الصحبة للشرب من غد فقال ارتجالا :

وجدت المدامة غلابة　　تهيج للقلب اشواقه
تسيء من المرء تاديبه　　ولكن تحسن اخلاقه
وانفس ما للفتى لبه　　وذو اللب يكره انفاقه
وقدمت امس بها موتة　　ولا يشتهي الموت من ذاقه

وموقف المتنبي في هذه الابيات واضح ، فامتناعه عن الخمر امر يمليه عليه الحفاظ على عقله وسلوكه . وهو موقف طبيعي ممن ظروف نشاته كظروف نشاة المتنبي وممن تحمل همّ ما لقيه الناس به وهم نفسه ، ليكون دائما كوكب المحافل وحديث الدنيا باسرها (١) . ومن طريف ما يلاحظ في موقف المتنبي من العقل ، او مما يدل على ان عقل المتنبي هو عقل لا يدعو صاحبه الا الى فعل العظائم انه لما عزم وهو بمصر على مدح فاتك الاخشيدي والي كافور – وكان يلقب بفاتك المجنون – قلب ابو الطيب الذم بلقبه مدحا فقال :

وقد يلقبه المجنون حاسده　　اذا اختلطن وبعض العقل عقال

ويمكن ان نقول مثل ذلك في كل مواقف المتنبي من الناس والحياة وهي مواقف نابعة عن عقيدة خاصة به اكثر من كونها عن عقيدة عامة ، قرمطية او غير قرمطية ، ياخذ بها مع غيره من الناس .

وما مبادىء عقيدة المتنبي هذه – في نظرنا – او اصول هذه الفلسفة الخاصة به الا اصداء لتطلعات نفسه ومبررات لتحقيق مآربه ومطامحه الذاتية . ونحن نقدر ان شخصية متجوهرة كما قال العكبري، سخصية في قوة وشاعرية المتنبي لا يمكن ان تكون مفاهيم الاشياء لديها نابعة منها بقدر ما تكون منبعثة منه عليها . وقد لا نجاوز اذا قلنا انه ليس بشاعر من تكون للاشياء والمواضعات قيم ذاتية ثابتة في نظره .

ولذلك ، فان ايمان ابي الطيب بالقدر ليس على مذهب الحشوية بل يعتقد ان الفناء يمكن رده ، وكذا الحسن والقبح، فهو عنده ليس ذاتي في الاشياء بل ما حسنته نفسه فهو حسن وما استقبحته فهو قبيح (*) . وهذه المبادىء انسب له في الشعر وابلغ له في تحقيق امانيه . وقد تقدمت امثلة من ديوانه على ذلك . ونريد ان نشير هنا فقط الى مثال طريف يصور لنا كيف ينعكس موقف المتنبي من الاشياء الخارجية على صورها في نفسه ، ففي قصيدة مدح بها سيف الدولة وكان جالسا تحت قبة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصورة وحش وحيوان قال – وكانه لا يستطيع ان يرى صورة ملك الروم الا ذليلا امام ملك العرب – :

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة　　لابلج لا تيجان الا عمائمه

لقد كانت الحياة العامة حول المتنبي لا تبعث نفسه الانفرادية والقلقة بطبيعتها على الاطمئنان لاحد او ترضى بشيء ، فغربته عن جميع المذاهب القائمة والسياسات الحاكمة لم تسلمه الا الى الانطواء على شعره يحقق به وجوده وينشر فيه اعلامه . ونظن انه كان يفعل للاستيلاء على عرش الشعر فعل المستولين على السلطة في عصره. فلقد رثى ولد سيف الدولة بقوله :

توليه اطراف البلاد رماحه　　وتمنعه اطرافهن من العزل

ولم تكن للمتنبي فيما نعلم صنعة اخرى غير صنعة الشعر . ونعتقد انها حرفته الوحيدة منها ياتيه رزقه ومنها يستمد مجده واشعاعه . فلزمته اخلاق الشعراء المادحين . وهي ليست في الحقيقة اخلاق سلوكية او فلسفية بقدر ما هي وسائل مشروعة فنيا واجتماعيا لكسب قوته وتحقيق فنه . ولذلك كان من الطبيعي ان يكون من اسمى القيم الاجتماعية في نظر الشاعر الجود والكرم . وهي اخلاق المهنة ورثها الشعراء منذ وقت طويل في تاريخ الشعر العربي . ولذلك كان من الطبيعي ايضا ان يكون التلاحي والمغاضبة بين الشعراء وممدوحيهم وبين الشعراء بعضهم مع بعض لا من اجل مبدا او فكرة ولكن من اجل تطفيف في الجائزة او الحرمان منها .

ونحن نعتقد ان المتنبي كان خاضعا في دورته الشعرية لثلاث جاذبيات كبرى : جاذبية الجائزة وجاذبية الجودة الفنية وجاذبية الشهرة . وهو في الواقع لا يخرج بذلك عما يخضع له عادة سائر الشعراء . غير ان جانب الاصالة في المتنبي جعله يحاول محاولة نادرة، هي ان يجعل كل ما حوله منجذبا اليه خاضعا لهواه محققا لرغائبه وهموم نفسه . وكان على المتنبي ان يحقق مع ذلك توازنه بين هذه الجاذبيات المتقابلة . ولعله انما وفق فيما وفق فيه بفضل اخلاصه الشديد مع نفسه اي بقائه كما هو وبفضل اخلاصه الشديد لفنه .

لقد نجح المتنبي في ان يرتفع بشعره الى مستوى جوائز الملوك والرؤساء ، وان يبلغ به في التجويد مرتبة تعجب العلماء والنقاد، وان يفتح له ابواب الشهرة في غرب العراق وشرقها متحديا كل ضروب الاحتكار او الاستحواذ التي حاولها الملوك ازاءه . .

كان المتنبي يربأ حتى بالهجاء على من ليس اهلا لشعره . وكان ذلك ادراكا عميقا منه لاهمية الشعر وشعره بالخصوص . وهو ادراك

(*) كقوله :

ما الخوف الا ما تخوفه الفتى　　ولا الامن الا ما رآه الفتى امنا

---

(١) ويعبر عن موقفه ذاك باكثر وضوح في قوله :

وترى الفتوة والمروءة والابو　　ة في كل مليحة ضرّاتها
هن الثلاث المانعاتي لذّتي　　في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

واصاب العكبري في شرح هذه الابيات حين ذكر قول الحكيم : النفوس المتجوهرة تترك الشهوات البهيمية طبعا لا خوفا .

غريب ،لان الناس كانوا قد تنزلوا بالشعر قبله وفي عصره الى ابسط اغراض الحياة ومرافقها . وكان لابي الطيب راي طريف كذلك في منح الملوك التي تعطي على الشعر ، يدل على تقدير عظيم للفن واحلاله فوق كل مقابل . ولم تكن الا نفس المتنبي او نفس كنفسه تزكي هذا التقدير للفن ، ولم تكن الا عبقرية كعبقريته لا تستطيع ان تصنع الشعر على نسبة الممدوح في نفسه او نسبة الجائزة منه ، او تجل عن ذلك . وظل المتنبي مخلصا مع نفسه ومخلصا لفنه رغم ما كان يلاحظه بمرارة من تصرف الممدوحين بشعره عطاء عليه او مضاهاة به، ويقول:

ومن يظن نثر الحب جودا وينصب تحت ما نثر الشباكا

وهو تعريض بسائر الملوك ، يشير الى انهم يجودون طمعا في جر المنافع كمن نثر حبا تحت شبكة لم يعد ذلك جودا بالحب لانه انما نثره لاخذ الصيد الذي هو خير من الحب .

ويقول في بعض مخاطباته للملوك :

وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر استجده

ولا نستطيع ان نقول ان المتنبي يبرر هنا لاخذ الجائزة ، لان معرفتنا بنفسيته تؤكد انه كان يحيى بالفخر وللفخر ، ولان الفنان – من ناحية اخرى – انما يزكو فنه بما يظهر الناس من شعور الاعجاب به ؛ وكانت الجائزة مظهرا من مظاهر ذلك الاعجاب ولا تزال الى اليوم . ويقول المتنبي مخاطبا بعض ممدوحيه :

كل شعر نظير قائله فيك وعقل المجيز عقل المجاز

ولدينا خبر على غاية من الاهمية اذ يساعدنا على فهم بعض احوال المتنبي في هذه القضية وما يتصل بها وخاصة علاقته بالممدوحين وتقلبه بين الامصار . وقصة هذا الخبر انه لما كان ابو الطيب بارجان عند ابي الفضل بن العميد جاء ابن العميد كتاب من عضد الدولة في طلب المتنبي ، فانباه ابن العميد به فقال : مالي وللديلم ؟ فقال ابو الفضل : عضد الدولة افضل مني ، ويصلك باضعاف ما وصلتك به ! فاجاب : « باني ملقى من هؤلاء الملوك اقصد الواحد بعد الواحد ، واملكهم شيئا يبقى ببقاء النيرين ويعطونني عرضا فانيا، ولي ضجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي فاحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه ». فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث، فورد الجواب بانه مملك مراده في المقام والظعن .

وموقفه من جوائز الملوك يوضحه كذلك ما رواه التبريزي قال :« ان المتنبي لما كان بارجان قال : « الملوك قرود يشبه بعضهم بعضا لا على الجودة يعطون » وهو حكم صحيح في عمومه غير ان المتنبي متهم فيه بمعاداة جميع الشعراء لفرط العجب بنفسه وبشعره ، كالديك يبغض ما دونه من الدجاج في الحبة الواحدة ولو على شبع . ولذلك كنا نفسر ظاهرة الشكوى من الحساد المنتشرة بكثرة لافتة في شعره بالانانية المستحكمة من نفسه في علاقته بالاخرين . فكان هو المحسود على الحقيقة والناس هم المحسودون . يقول في قصيدة في مدح سيف الدولة :

فابلغ حاسدي عليك اني كبا برق يحاول بي لحاقا

فهو شخص لا يرضى بالمشاركة في شيء .

اذن فقد فصل المتنبي بين الاخلاص لفنه وبين الجائزة عليه دون ان يستطيع الفكاك من اقتضاء الجائزة او دون ان يجد غرضا لشعره غير غرض المديح . وقد بيّنا ان ذلك لم يكن عن قلة تطلع منه الى اغراض اخرى يقول فيها الشعر ، ولكن لانه كان يحب ان يمدحه الناس بشعره . فلم يكن امامه الا ان يمدح به الملوك والعظماء ليشتهر امره ويذيع خبر جوائزهم له ويعظم قدره عندهم فيكون الممدوح على الحقيقة وهم المادحين . وتشهد بذلك اخبار استقبال الملوك له وماالبسوه من الخلع الملكية وما وضعوه بين يديه من البدر والهدايا ورضاؤهم خاصة بشرطه في عدم الوقوف بين ايديهم عند الانشاد على العادة في تعظيمهم . وادل من ذلك كله انك تقرأ قصائده في مديحهم فلا ترى قصيدة واحدة معطلة من مفاخرة . بل انك تواجد من قصائده ما اغلبها في مدح نفسه واقلها في مدح الملك . وتراه يبدأ القصيدة بحديث همه ونعاليه وتحديه الصعاب ويلم الماما بالمدح ثم يتركه للفخر بنفسه من جديد ،ويراوح بين شخصه وشخص الملك في المديح حتى لا يترك خصلة من خصال الملوك لا يشاركهم فيها الا الكرم . وحسبهم لانه انما يقتضيهم العطاء على شعره .

فقد ذكر ابو القاسم الاصفهاني ان المتنبي لما اتى سيف الدولة « اشترط انه لا ينشد الا قاعدا وعلى الوحدة ، فاستحملوه واجابوه اليه . فلما سمع سيف الدولة شعره حكم له بالفضل وعد ما طلبه استحقاقا » فهل نال الشعر اشرف من هذه المكانة على يد غير المتنبي ؟ ولم تكن مواقف ابي الطيب مع غير سيف الدولة من الملوك باقل من هذا الاعزاز لنفسه والتشريف لشعره . حتى عُرف ذلك من رسوم المتنبي في انشاد الشعر . فيروي الاصفهاني كذلك انه قام بحضرة عضد الدولة وبيده درج « فاجلسته عضد الدولة » . ولما قصد ابو الطيب مدح ابا القاسم طاهر العلوي كانت حاله معه اعجب ، فقد قال علي بن القاسم الكاتب : كنت حاضرا هذا المجلس فما رايت ولا سمعت ان شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير ابي الطيب فاني رايت هذا الشريف قد اجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فانشده القصيدة » .

ولذلك نستغرب ما يتناقله مؤرخو الادب عن تهافت المتنبي على الجائزة ، وخاصة كما يصورونه في علاقته بكافور ، يريق ماء وجهه في طلب ولاية منه او اقطاع بمصر . ولهم في ذلك قوله في بعض مدائحه لكافور :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقوله له في بيت سابق من القصيدة نفسها :

أبا المسك هل في الكاس فضل أناله
فاني اغني منذ حين وتشرب

قالوا : أن الولاية التي كان يطمع فيها المتنبي هي ولاية صيدا، وكان كافور وعده بها وقالوا ايضا : ان آماله الواسعة في السلطان هي التي حملته الى مصر ، فلما لم يظفر من ابي المسك بضيعة ولا ولاية هجاه ككل شاعر كالمتنبي يمدح ويهجو بالكذب من اجل مال يصيبه او لا يصيبه .

ونحن نعتقد أن ذلك غير صحيح وانه من بعض ما وقع من اوهام واغاليط في تاريخ الادب العربي لاسباب مختلفة منها قلة التحري في الاخبار وعدم المطابقة بينها وبين احوال الشاعر في نفسه وفي فنه .

لقد راينا من احوال الشاعر ونفسيته ما يكذب كل الاخبار الواردة عن تواضعه او اتضاعه بشخصه او بشعره لانسان ما او في محل من المحال . وعلاقته بكافور لا بد أن نراجعها على هذا الاساس.

وخبر هذه الولاية التي قيل ان المتنبي كان يطلبها يستند فيما يبدو لنا الى امرين : الى مجرد دسيسة من ناحية ، ومن ناحية اخرى الى ذلك البيت الذي جاء فيه ذكر الولاية والضيعة . غير ان تلك الشائعة او الدسيسة سرعان ما انقلبت على السنة الرواة الى وعد قطعه كافور على نفسه للمتنبي، ثم اتخذ الشراح ذلك البيت مصداقا للوعد ، ونسي الامر . ولم نر من تفطن الى التامل في المقصود الحقيقي للمتنبي من البيت في تلك القصيدة وفي ضوء ما تطورت اليه انذاك علاقته بكافور وعلاقة كافور به .

والروايات المختلفة في هذا الموضوع كلها ظاهرة التلفيق ، من ذلك ما ذكره الاصفهاني قال : « .. وسمعت من قال : ان كافورا لما سمع قوله :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

يلتمس ولاية صيداء . فاجابه : لست اجسر على توليك صيداء، لانك على ما انت عليه تحدثك نفسك بما تحدث . فان وليتك صيداء فمن يطيقك ؟! » وقال بعض الشراح : « انه ـ اي كافور ـ قال لابي الطيب : أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة ، فان أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟»

ونحن نعتقد ان هذه من استزادات الرواة وان اصل الخبر انما هو ما نقله احد شراح الديوان من « ان كافورا كان نقدم الى الحجاب واصحاب الاخبار ، فكانوا كل يوم يرجفون بانه قد ولى ابا الطيب ناحية من الصعيد ، وينفذ اليه قوما يعرفونه بذلك فلما كثر ذلك وعلم ان المتنبي لا يثق بكلام سمعه حمل اليه ستمائة دينار ذهبا فقال ابو الطيب هذه القصيدة يمدحه بها :

اغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الوصل والوصل اعجب
الخ .. »

ومعروف ان هذه القصيدة قالها المتنبي حين بدأ يبرم بالبقاء بمصر الى جانب كافور . ومن يقرأها كلها يدرك ان اهم فكرة فيها هي محاولة ابي الطيب اقناع كافور بتسريحه الى اهله ويتذرع له بمناسبة العيد لشدة الحنين فيه الى الاهل . ويعرّض المتنبي في الاثناء بحديث الولاية فيقول له أنك لم تولني ولاية ولم تقطعني ضيعة واذا لم تفعل ذلك لتلزمني البقاء نحوك فلم البقاء ؟ فان نعمك التي تكسوني بين لا أكاد اسر بها ويسلبها مني انشغالك عن تحقيق امنيتي هذه وهي الرجوع الى اهلي وشدة شوقي اليهم وخاصة في هذا العيد .

اذا لم تنط بين ضيعة او ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه ... حذائي وابكي من احب وأندب

والبيت الثاني يوضح المقصود من ذكر الولاية والضيعة « البيت الاول على عادة المتنبي في تعلق المعنى الواحد في شعره ، بين بيتين في الغالب .

فلم تكن هناك بالمرة في راس المتنبي فكرة اقتضاء ولاية او ضيعة من كافور ، لا فقط لاننا نذهب الى ان كافورا لم يعده بذلك او يطلب الشاعر منه ذلك ولا ايضا لان المتنبي لم يصدق ما دس به اليه من حديث الولاية ولكن لامر او امور اخرى ينبغي ان نبحث عنها في ما نعرفه عن شخصية المتنبي وميوله ومدى لحمته بفنه واطواره مع ممدوحيه وخاصة كافور .

ولا بد ان نلاحظ قبل ذلك ان المتنبي لم يكن قد اتى مصر بحثا عن كرسي للحكم في صيدا او غيرها من أعمال مصر ، ولعل الوهم بذلك جاء مما اتهم به في صباه من الخروج عن السلطان وادعاء النبوة وما ظنه الناس من اهداف لطموحه البعيد وهمته العالية .

ثم ان المتنبي لم يات مصر وهو فقير او سيء الحال وطامعا مع ذلك في منصب عال بل لقد دخل مصر وعنوانه الاكبر انه شاعر سيف الدولة وكان المتنبي عند الامير الحمداني من اعظم الشعراء ثروة بما وصله به سيف الدولة . فقد اخبر ابو القاسم الاصفهاني قال : « اخبرني بعض المولدين ببغداد ، وخاله ابو الفتح يتوزر لسيف الدولة ان سيف الدولة رسم لي التوقيع الى ديوان البر باخراج الحال فيما وصل به المتنبي ، فخرجت بخمسة وثلاثين الف دينار في مدة اربع سنين » . ولا يبعد ان تكون الاقطاع المعروفة للمتنبي بمعرة النعمان كلها او بعضها مما امر له بها سيف الدولة.

ولذلك يبدو لنا ان المتنبي لم يقصد كافورا لذاته وانما قصده لانه صاحب مصر ، وما ادراك ما مصر ، هذه الارض المباركة في القرآن! ولعل المتنبي كان يأمل أن يجد عند عزيز مصر مناخا اطيب لدر الهامه وشعره ، ولعله كان يأمل كذلك ان يبني له كافور صرحا عاليا يطلع منه على سيف الدولة وعلى العالمين بكل فخر وازدهاء . فقد كان همه الوحيد الا يكون مدح ابلغ للملوك الا بشعر ، والايكون تكريم لشاعر اعظم من تكريمهم اياه . ومن اجل ذلك كان يكره ان يقسر شعره او نفسه على البقاء في خدمة واحد منهم ، لانه انما يريد ان يكونوا جميعهم في خدمة الشعر الهاما وابداعا وشهرة، وفي خدمة شخصه وتتويجهم اياه ملكا على الشعراء قاطبة .

فهذه هي السلطة التي كان يبحث عنها المتنبي في مصر وفي غير مصر من العواصم ولم يكن يسعى الى ولاية يحكم فيها بالعدل والقسطاس او يعتو فيها على ذله من اهلها وفي غفلة من كل خليفة او سلطان فوقه ، ومهما تكن اطماع الثائرين في عصر المتنبي ومهما يكن تصورنا عن الاضطراب السياسي في ذلك العصر فلا ينبغي ان نغفل عن ان الولايات كانت من نصيب الامراء والقواد تعطى لهم عطاء او ينتزعونها انتزاعا وكذلك لاهل السابقة في الدولة او لاصحاب دعوتها وللاكفاء من مواليها ومن بيوتات الرئاسة والشرف فيها . وكافور الذي ربما قيل ان مثاله اغرى المتنبي لا يخرج هو او غيره من المتنزين على الحكم في عصره عن واحد من احدى تلك الطبقات. والمتنبي وهو الملك على رقاب الشعراء ابعد من ان تكون همته ـ حين جاء مصر ـ الى تمليكه رقاب العباد . انما مملكة شعره هي التي اراد ان يتسع بها ويبسطها كذلك على كافور . لكن ابا المسك خيب ظنونه او خابت ظنون شاعرنا العظيم في عزيز مصر وفي اهلها ربما من يوم نزوله ومن يوم لقائه الاول به . ولا تزال مصر تخيب ظنون الكثيرين من قصادها المتعاظمين . لقد كان في طبع المتنبي جراءة وجفو وقسوة وحدة واباء من اشد ما في طبع العراقيين من ذلك . ويصعب على من كان ذلك طبعه ان يكتسب ود اهل النيل ومحبتهم ، اذا لم يصانعهم ويخالط طباعه بطباعهم . ولا يزال اهل مصر لا يعظم عندهم عظيم الا اذا عظموه ويحتقر عندهم كل عظيم اذا حقروه .

ولا شك ان كافورا قد عرف اشياء عن المتنبي منها ادلاله على الملوك وتعاظمه والمغالاة بشعره على الجائزة . ولعله ان يكون قدر للظفر بمدائح كثيرة من المتنبي ان ياخذه بالبقاء عنده اطول مدة وان يدس اليه بالوعود المغرية حتى لا تنقبض نفسه منه او يخيب امانيه عنده بقلة الجائزة .

ولم تكن لتغيب نوايا كافور ولا قلة علمه بالشعر . عن فطنة المتنبي . وشاعرنا بطبعه لا يستطيع ان يخفي انفعالاته او يساوم في عزة نفسه والتغالي بشعره . وكل فكرة للعدول عن البقاء في خدمة كافور أو الامساك عن مدحه كانت تكون مغامرة سابقة لاوانها ، ولا بد لها على الاقل من مدة للتعمية عنها ولاختباره قبل القيام بها .

لكن الحالة النفسية الحقيقية للمتنبي كان لا بد ان يطفح منها على السطح جانب . هذا الجانب هو ما نلاحظه في شعره في الفترة المصرية من تحسر على مفارقة سيف الدولة حيث كان مكرما في دولة العلم والادب ، وكذلك حنينه الى اهله بالعراق وهو ثالثا شكواه المتزايدة من الدهر الغادر والجد العاثر . وليس ذلك كل ما نلاحظه من هذا الجانب في شعره المصري بل ابرز من ذلك كله هو هذا المدح الذي كان يزجيه الى كافور ملفقا باقذع الهجاء . او قل هذه القصائد التي نراها مدحا كأبلغ المدح في بهو البلاط الاخشيدي ونراها خارجه في ضوء النهار هجاء مقذعا .

ونحن نعتقد ان هذه ظاهرة غريبة في شعر المتنبي ولا نعرفها عند من سبقه ، ولعل ابا الطيب ان يكون هو اول من ابتدعها في الشعر العربي . وهذا الشعر الذي يحتمل ظاهرا وباطنا لم يكن من ابواب البلاغة في الادب العربي ،وليس هو من الاسلوب المعروف لدى البلاغيين القدماء باسلوب الحكيم وليس هو من التعريض او من التهكم المعروف في النثر الفني عند الجاحظ وامثاله . وهذا اللون من المدح المحتمل للهجاء والذي ليس هو كذلك من النفاق او من صفاته ، انما هو فيما يظهر فن طريف من فنون التعبير ، لعل

المتنبي ان يكون قد وقع عليه لاول مرة عند المصريين فاعجبه واقتبسه منهم في شعره ، يحقق به ما يبتغي لنفسه من الزلفى لدى ممدوحه كافور وينفس به عما يعتمل بداخله من السخرية به والهزء منه ويشفع له بآخرة في الاعتذار عن مدحه .

وكان ابن جني يعرف هذه الخاصية في شعر المتنبي في كافور وكان يتتبع في قصائده ابيات المدح التي يمكن ان نقلب هجاء ، كقول ابي الطيب :

فان نلت ما أملت منك فربما
شربت بماء يعجز الطير ورده

وكقوله : وغير كثير ان يزورك راحلا .فيرجع ملكا للعراقين واليا

والمتنبي نفسه يشير الى ذلك في قوله في هجاء كافور :

وشعر مدحت به الكركدن   بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له   ولكنه هجو الورى
ومن جهلت نفسه قدره   رأى غيره منه ما لا يرى

ورغم ما جاء في ديوان المتنبي من ان كافور اخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه عند قدومه مصر آلافا من الدراهم الا ان تشكيك الواحدي في اهمية حفاوة كافور بالمتنبي ومبلغ اكرامه يبقى امرا محتملا . وذلك بصدد شرحه قول المتنبي :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني   لكي يقال عظيم القدر مقصود

يقول الواحدي : « لهذا وجهان : احدهما ان المتنبي اتاه بهدايا والطاف ولم يكافئه عنها والآخر ان المتنبي كان يأكل من خاص ماله عنده وينفق على نفسه مما حمله وهو يمنعه من الارتحال ، فكأنه يأكل زاده حين لم يبعث اليه شيئا ومنعه من الطلب . وقال قوم : كان الاسود قد جمع له شيئا من غلمانه وخدمه ثم اخذه ولم يعطه شيئا يقول : هو يمسكني عنده كي يتجمل بقصدي اياه فيقول الناس انه عظيم القدر يقصده المتنبي مادحا » . ويتصل بهذا الامر ما جاء في ديوانه من انه نظر يوما الى كافور فقال :

لو كان ذا الآكل ازوادنا   ضيفا لاوسعناه احسانا
لكننا في العين اضيافه   يوسعنا زورا وبهتانا
فليته خلى لنا سبلنا   اعانه الله وايانا

ومهما يكن من امر فان الذي ساء المتنبي من كافور ليس قلة المال بل قلة الود الذي اظهره كافور نحوه :

ان نلت منك الود فالمال هين   وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا البيت مما قاله له في آخر مدائحه . فقد سلبه كافور حريته حين جعله – بعد ان حصل عنده بمصر – لا يستطيع الرحيل عنه بغير اذنه ولا مدح غيره بغير رضاه . وكان كافور يطالب ابا الطيب بالانشاد في اغراض ومناسبات معينة فكانت نفس ابي الطيب تسمح احيانا بالشعر واحيانا يعتذر بانحباس الشعر عنه واحيانا اخرى ينقطع عن لقائه والتردد اليه مدة .

فلا شك ان حريته المهددة بمصر ونظرة الاحتقار الى كافور والسخرية منه مع الاضطرار الى مدحه والبقاء بمصر على مضض بالاضافة الى اشتغال البال طوال ذلك بالبحث عن حيلة للخلاص – لا شك ان كل ذلك قد ولد حالة نفسية مضطربة وناقمة لدى المتنبي . وهي فعلا ما نجده متجليا في فترة شعره المصري . وقد تكون تلك الحمى التي كانت تغشاه بمصر من اسبابها ايضا . من ذلك قوله :

اقمت بارض مصر فلا ورائي   تخب بي المطي ولا امامي
وملني الفراش وكان جنبي   يمل لقاءه في كل عام
قليل عائدي سقم فؤادي   كثير حاسدي صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام   شديد السكر من غير المدام

الى ان يقول منطلقا الى حريته القديمة :

الا يا ليت شعر يدي اتمسى   تصرّف في عنان او زمام
..وضاقت خطة فخلصت منها   خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع   وودعت البلاد بلا سلام

ومن قوله وهو في هذه الحالة النفسية المريرة :

اما في هذه الدنيا كريم   تزول به عن القلب الهموم
اما في هذه الدنيا مكان   يُسرّ باهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى   علينا والموالي والصميم
وما ادري اذا داء حديث   اصاب الناس ام داء قديم ؟
حصلت بارض مصر على عبيد   كأن الحرّ بينهم يتيم
كأن الاسود اللابي فيهم   غراب حوله رخم وبوم
أخذت بمدحه فرأيت لهوا   مقالي للاحيمق يا حليم
ولما ان هجوت رأيت عيّا   مقالي لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر في ذا وفي ذا   فمدفوع الى السقم السقيم

ومن طريف ما في الاخبار عن محاولات المتنبي للخلاص من كافور ما جاء في ديوانه من انه استاذن كافورا في المسير الى الرملة ليخلص ما كتب له به ، وانما اراد ان يعرف ما عند كافور في مسيره، فقال : لا والله لا نكلفك المسير ، نحن نبعث في خلاصه ونكفيك فقال ابو الطيب :

اتحلف لا تكلفني مسيرا   وابعد شقة واشد حالا
وانت مكلفي ابني مكانا   الى بلد احاول فيه مالا
اذا سرنا على الفسطاط يوما   فلقني الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت مني   وانك رمت من ضيمي محالا

وقصة افلاته من كافور معروفة وقد سجلها لنا في قصيدته المشهورة :

الا كل ماشية الخيزلى   فدا كل ماشية الهيدبى

وفيها يقول :

ضربت بها التيه ضرب القما   ر اما لذا واما لذا

ورغم الفرق الواضح بين علاقة المتنبي بسيف الدولة وبين علاقته بكافور الا اننا نعتقد ان اسباب فراقهما واحدة وان اختلفت في الظاهر . فهي ترجع الى ما يسميه بفجراته واختياراته ، في قوله – وقد تقدم – : « ولي ضجرات واختيارات فيعوفونني – اي الملوك الذين يقصدهم الواحد بعد الواحد – عن مرادي فاحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه » .

كان المتنبي يريد ان يبقى حرّ التنقل بين الملوك ويريد ان يبقى حر العطاء بشعره في مدحهم ، بينما كانوا هم يريدونه على الانفراد بخدمتهم ويطالبونه في كل يوم بالمديح لهم . فقد ذكر ابن جني « ان سيف الدولة كان اذا تاخر المتنبي عن مدحه شق عليه واكثر اذاه واحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، فلا يجيب ابو الطيب احدا عن شيء ، فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة » . ولذلك فما يقال عن هجر المتنبي بلاط سيف الدولة لكثرة ما اصبح من حساده به او لتهجم ابي فراس الحمداني عليه امام الامير او تعرّض ابي العشائر له بالاذى .. كلها واشباهها ليست الا نتاج او اصداء للموقف الحقيقي وهو ضغط الامير على حرية الشاعر .

والمتنبي يعرف ان هذه الضغوط والمعوّقات لا تحقق الخير لشعره ولا الشهرة البعيدة له وهما كل طموحه ومنتهى امانيه . ولذلك ظلت همته العالية في صراع معها من اجل ذلك . وكان شعاره في علاقته بالملوك قوله :

وكل امرىء يولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

ونعتقد ان المتنبي استطاع ان يفوز بنفسه وبشعره عن كل

ابتذال ورداءة بفضل شخصيته الصلبة المتماسكة الاطراف وقوة اعتداد بنفسه وثباته على المبدأ .

وقد اتهم المتنبي مع الاسف في اعتداده بنفسه بالغلو وفي شعره بالكذب والمبالغة . ويبدو لنا ان الذين اتهموه بذلك قد اغفلوا محاكمته بمقاييس الشعر في ذلك العصر وبمفهوم البلاغة في ذلك العصر ، الى جانب سوء تصورهم او نقص تصورهم لجوانب شخصيته.

قلما تخلو قصيدة من قصائد المتنبي لا يصور فيها ـ سواء في مقدمتها او في بعض فصولها ـ ما يتحلى به من بعد الهمة وعلو النفس والتعرض للصعاب ومقارعة الخطوب ومنازلة الاعداء بما لا نظير له عند شاعر من شعراء العربية حتى ليعد ديوانه ملحمة فريدة في الادب العربي لكثرة ما يبرق فيه من سيوف وتتراكض فيه من خيول وتسيل فيه من دماء ويثار فيه من نقيع .

والملاحظ ان المتنبي ليس يبالغ فقط في تصوير طموحه واقدامه بل لا يصور ذلك في الغالب الا وهو يتطاول على الناس والملوك ولا يحلو له ذلك الا بذمهم جميعا لامتداح نفسه.والامثلة على ذلك كثيرة من شعره وخاصة مما قاله في صباه كقوله وقد قيل له وهو في المكتب ما احسن هذه الوفرة :

لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يعلها من كل وافي السبال

وقال في صباه :

امط عنك تشبيهي بما وكانه ... فما احد فوقي ولا احد مثلي
وذرني واياه وطرفي وذابلي ... نكن واحدا يلقى الورى وانظرن فعلي

وقال في صباه ارتجالا :

اي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وكقوله :

اليّ لعمري قصد كل عجيبة ... كانّي عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم أجرّ ذؤابتي ... واي مكان لم تطأه ركائبي

وقال في صباه ايضا :

ان اكن معجبا فعجب عجيب ... لم تجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافي ... وسمام العدا وغيظ الحسود

وقال ايضا :

انا صخرة الوادي اذا ما زوحمت ... واذا نطقت فانني الجوزاء
يشيم الليالي ان تشكك ناقتي ... صدري بها افضى ام البيداء

وقال من قصيدة اخرى :

لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت ... واني عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفى ... ولا كل من سيم خسفا ابى
ولا بد للقلب من آلة ... ورأي يصدع صم الصفا
ومن يك قلب كقلبي له ... يشق الى العزّ قلب التوى
وكل طريق اتاه الفتى ... على قدر الرجل فيه الخطا

وقد اخذ الناس عليه من قديم تهوره وفضوله وشككوا في صحة دواعيه حتى قال بعض من شاهده : انه لم يكن فيه فروسية ، وانما كان سيف الدولة سلمه الى النخاسين والرواض بحلب ، فاستجرا على الركض والحضر ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله ». وحتى انكر عليه بعضهم ان يكون شعره يصور حبة من رباطة جاشه وتقحمه للصعاب .

واعتداد المتنبي بشعره هو جزء لا يتجزأ من اعتداده بنفسه ،وهو يبالغ فيه كذلك مبالغة لا يدانيه فيها احد وهو كذلك يمدح شعره بذم اشعار غيره من الشعراء لا يستثني منهم احدا . وهو الذي يقول:

وفؤادي من الملوك وان كا ... ن لساني يرى من الشعراء

وشبه شعره بالسيف فقال يخاطب سيف الدولة :

فلو قدر السنان على لسان ... لقال لك السنان كما اقول

واهمية اشعاره في نفسه انها على حد قوله :

بذي الغباوة من انشادها ضرر ... كما تضر رياح الورد بالجُعل

وقال :

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا ... بيتا ولكني الهزبر الباسل
ما نال اهل الجاهلية كلهم ... شعري ولا سمعت بسحري بابل
واذا اتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي باني كامل
من لي بفهم اهيل عصر يدعي ... ان يحسب الهندي فيهم بابل

وله ايضا :

وما الدهر الا من رواة قصائدي ... اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا
..اجزني اذا انشدت شعرا فانما ... بشعري اتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني ... انا الطائر المحكي والاخر الصدى

وقال كذلك : ومن الناس من يجوز عليه
شعراء كانها الخاز باز

وقال :

وما قلت من شعر تكاد بيوته ... اذا كتبت يبيض من نورها الحبر

وما ذكرت المبالغة او الغلو في كتب النقد الا وابرز امثلتها من شعر المتنبي والمبالغة هي في الحقيقة الصفة الغالبة في البلاغة عند العرب . وكانت ـ اي المبالغة ـ محور التطور في الشعر العربي طيلة قرون عديدة ولا تزال من عمود الشعر حتى في بعض الحركات الشعرية الحديثة وقد ذهب النقاد في تفصيل الكلام في الاغراق والغلو او الافراط مذاهب شتى . وكلهم متفقون على ان المبالغة لازمة من اللوازم الفنية في الشعر . واحسن ما وجدنا تفصيلا في ذلك فصل لحازم القرطاجني يقول فيه : « لا يخلو الشيء المقصود مدحه او ذمه من ان يوصف بما يكون فيه واجبا او ممكنا او ممتنعا اومستحيلا. والوصف بالمستحيل افحش ما يمكن ان يقع فيه جاهل او غالط في هذه الصناعة . والممتنع قد يقع في الكلام الا ان ذلك لا يستساغ الا على جهة المجاز .. فان العلماء بصناعة البلاغة متفقون على ان ما ادى الى الاحالة قبيح . وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ..فاستحسنوا في البلاغة ما خرج عن حد الحقيقة الى حيز الاستحالة .

« وانما جرى الغلط على كثير من الناس في هذا حيث لم يفرقوا بين الوصف الذي لا يخرج عن حد الامكان وان لم يثبت وقوعه وبين الخارج الى حيز الاستحالة . وغلطهم في ذلك ابيات وقعت فيها مبالغات خفيت عليهم فيها جهات الامكان فظنوا انها من الممتنعة او المستحيلة .

ومثل ذلك من المبالغات التي يمكن ان تتصور لها حقيقة وان نصرف الى جهة الامكان وان كان مما يستندر ووقوع مثله قول المتنبي :

واني اهتدى هذا الرسول بارضه ... وما سكنت مذ سرت فيها القساطل
ومن اي ماء كان يسقى جياده ... وما تصفو من مزج الدماء المناهل

فهذا مستساغ مقبول من حيث يمكن ان نتصور له حقيقة وان لم تكن واقعة اذ كانت كثرة الجيوش لا حد لها ومتى قدرت الزيادة في مقدار منها وان كثر امكنت .. فاراد المبالغة في جيش ممدوحه فجعله بالغا الى هذا المقدار .. »

ويقول حازم بعد ذلك : « ولا يلزم أبا الطيب ان يكون صادقاً في ذلك ، لان صناعة الشعر لها ان تستعمل الكذب الا انها لا تعدى الممكن من ذلك او الممتنع الى المستحيل » .

ويشبه رأي حازم في قضية الكذب في الشعر او المبالغة المفرطه رأي قدامه بن جعفر وسائر نقاد القرن الثالث والرابع ولابن رشيق رأي قريب من ذلك الا انه يقول : « ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر انما هي في معرفته بوجوه الاغراق والغلو ولا أرى ذلك الا محالا لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف » ويروي قول بعض النقاد : خير الكلام الحقائق فان لم يكن فما قاربها وناسبها » .

ويعد تاريخ النقد الادبي العربي وغير العربي انصارا وخصوما لهذه القضية المعروفة « باعذب الشعر اكذبه » . والملاحظ ان النقاد القدامى ومنهم حازم وقدامة وابن رشيق الذين ذكرناهم يحتكمون في هذه القضية الى المنطق العلمي ، فرغم تجاوزهم للناحية الخلقية في قضية الصدق والكذب في الشعر الا انهم تمسكوا بالمنطق الصوري الارسطاطاليسي مع اختلافهم في مدى استحسان المبالغة الممتنعة .

ومع ذلك فنجد ناقداً مثل العكبري يعيب على المتنبي هذا النوع من المبالغات ويقول وقد شرح قوله يمدح سيف الدوله :

شرق الجو بالغبار اذا سار علي بن احمد القمقام

« .. وهذا من حماقاته المعروفة ولا بد له في كل قصيدة من مثل هذا » .

ونعتقد ان ابن جني كان اصح نظرا للشعر من العكبري ومن ينحو نحوه في مؤاخذة المتنبي بالغلو والتناقض . فقد علق على ابيات للمتنبي قالها في لعبة تدور على لولب ، اديرت فسقطت عند بدر بن عمار وهي :

ما نقلت في مشيئة قدما ولا اشتكت من دوارها الما
لم أر شخصاً من قبل رؤيتها يفعل افعالها وما عزما
فلا تلمها على تواقعها أطربها ان رآك مبتسما

قال ابن جني:« هذا البيت يناقض الاول لانه وصفها بانها لا تشاء ولا تحس بالم ، ثم جعلها تضطرب لابتسام الممدوح وليس يعيب في صناعة الشعر لانه مبني على المحال » .

ولا شك ان عرض المبالغة في الشعر على مقياس الممكن والممتنع والمستحيل امر يغفل ناحية هامة في نقد الشعر وهي انفعال السامع او قبوله للمبالغة ، بدون المرور بعملية تفكير علمي او منطقي او حتى بحث عن مجرد وجود خارجي للصورة المبالغ فيها ، بل المدار هو الاستثارة التي يحدثها الشاعر بهذا الغلو او التخيل الجامح ومدى تقبل النفس او الذوق لها ، وبهذا الاعتبار يمكن ان نستنفد كثيراً من مبالغات المتنبي من مآخذ البلاغيين القدامى بل وحتى بعض النقاد المحدثين من انصار التعبير الصادق عن الشعور الصادق في الشعر .

ويتصل بهذه القضية مفهوم البلاغة في عصر المتنبي. وهو مفهوم متوارث ولم يتغير كثيرا حتى بعد عصر المتنبي . ذكره عبدالكريم الهشيلي القيرواني في كتابه الممتع في علم الشعر وعمله قال :«قالوا حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق . قال : ومنهم من يعيب ذلك المعنى ويعده اسهابا وآخر يعده نفاقا » بمعنى ان اكثر النقاد في تعريف البلاغة بالقدرة على التصرف في الكلام للتأثير على السامع في اتجاه ذم الشيء او مدحه . ولهذا اكتسب الشاعر صفة خطيرة في مجتمعه وشبه بالساحر والكاهن والنبي" لقوة تأثيره بالقوة التخييلية لا بالقوة الاقناعية او الخطابية كما يقول حازم القرطاجني .

والطريف اننا نجد المتنبي يدرك امر الصدق والكذب في الشعر على وجه صحيح ويأبى الا أن يفصل بين المشاعر الحقيقية للشاعر ازاء الممدوح وبين شعره ،ويجعل الرابطة الوحيدة بينهما فنية محضة حتى لا يقحم الشاعر في موقف اخلاقي او سياسي بالضرورة ونستنتج ذلك في الحقيقة من قوله يعاتب سيف الدولة:

حنانيك مسؤولا ولبيك داعيا
وحسبي موهوباً وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق ان كنت صادقاً
أهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا

ومع ذلك فقد صور بعض الباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين المتنبي في صورة افاق كبير يحمل لافتة كذاب من الطراز الحقير جدا اخلاقياً واجتماعيا . وهذا لعمري تجن كبير على علم من اعلام ادبنا القديم وجهل فادح بمعاليدنا النقدية . وصدق المتنبي حين قال :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

والمبالغه وان كانت من ركائز الكلام عند العرب او قل من صفات العرب الا انها عند المتنبي من الصفات القائمة بنفسه وبشعره فضلا عن عروبيته الخالصة . ولا شك أن مزاج أبي الطيب الحاد وطبيعته المهيمنة وهمته البعيدة وطموحه الشديد ، كلها عوامل دفعت به دفعا الى تطلب الغلو والتطرف في المدح والهجاء . كما دفع به هذا التكوين النفسي بالذات الى التصرف في التعبير وفي اللغة والاشتقاق والنحو بما لم يات به الاوائل طلبا للاعجاز. وما ظاهرة استعمال التصغير في شعره الا صورة من صور الميل في نفسه للتعبير عن الاشياء او وصفها بشكل مبالغ فيه تحقيرا او تعظيما . وليس كما ذهب بعض النقاد بسبب ما في نفسه من احتقار للناس والاشياء او كما قال آخر تأثراً ببعض خصائص التعبير لدى المتصوفه ، وان كانت هذه الامور من بعض ما يلاحظ في شعره .

ونحن نعتقد ان الناس لم يكن ليصدقوا بنبوة المتنبي في الشعر فقط لبلوغه باجماع النقاد مرتبة الاعجاز في البيان بل ولما اشتمل عليه شعره من حكم وامثال . وكانت الامثال احدى مذاهب الكلام المستحسنة عند العرب . يقول حازم القرطاجني :« وللشعراء مذاهب فيما يعتمدون ايقاعه في الجهات التي يعتمدون فيها القول من الانحاء المستحسنة في الكلام كالاوصاف والتشبيهات والحكم والتواريخ . فقل ما يشذ من مستحسن الكلام عن هذه الانحاء الاربعة بشيء ، فمنهم من تشتد عنايته بالاوصاف كالبحتري وبالتشبيه كابن المعتز وبالامثال كالمتنبي وبالتواريخ كابن دراج القسطلي » .

ونحن نعتقد كذلك ان شخصية المتنبي كما عرفناها في مهابتها وفخامتها وعمقها لم تكن لتختار منحى للقول غير ذلك المنحى او على الاصح لم يكن لها الا أن تنطلق في اجواز الحكمة السماوية .

ولعل المتنبي انما ظل يؤثر في النفس العربية لهذا الجانب من شعره وهو الامثال . ولان هذه الامثال على صورة من الايجاز المطابق لصورة البلاغة عنده ، فليس اشد ايجازا من البيت ومن مصراع واحد منه ، فضلا عن السلاسة والوزن المتوفرين في شعر المتنبي، مما يحقق روايتها وحفظها ، وذلك غاية الذاكرة العربية عموما من بلاغة الكلام .

ولامر آخر هو ان الحكم والامثال تستهوي النفوس ولا تزال لدى الشعوب الاقل فالاقل حضارة اختيارها المفضل . والضمير العربي طالما ظل ينزع للغيبيات طالما بقيت الامثال مؤثرة في حياته كما لا يؤثر قانون طبيعي او حقيقة علمية .

التتمة على الصفحة ـ ٧١ ـ

الصفدي ، صلاح‌الدين خليل بن ايبك : الوافي بالوفيات ج ٦. تحقيق س . ديدرينغ . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

الطباخ ، محمد راغب :اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ١ ـ المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٣ .

ابن العديم ، كمال الدين عمر : زبدة الحلب من تاريخ‌حلب ج ١ . تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ .

المتنبي : احمد بن الحسين : ديوان ابـــي الطيب المتنبـــي . صنعة الدكتور عبدالوهاب عزام ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهـــرة ١٩٤٤ .

ـ ديوان ابي الطيب المتنبي ـ شرح‌ابي الحسن علي‌بن احمد الواحدي تحقيق فريدريخ ديتريصي ، برليـــن ١٨٦١ .

المقريزي ، تقي‌الدين : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ج ٢ بولاق ، القاهرة ١٢٧٠ هـ .

ابن وكيع ، الحسن بن علي : المنصف من السارق والمسروق في شعـر المتنبي ـ تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم (مخطوط).

مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

ولامر اخـر ظل المتنبي خالدا بفنه هـو هذه النبرة الشاجية العاليـة فـي‌شعره . وهو امر تفطـن اليه حازم القرطاجني‌التونسي وذكره بتفصيل في كتابه منهاج البلغاء ، وممــا يقوله : « ان‌احوال جمهور الناس والمتفرغين لسمــاع الكلام حائمـة حـول مـــا ينعـم ويشجو » قال المتنبي :

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد

وبعد ان عدّد حازم الاحوال المستطابة او السارة قال :«والاحوال الشاجية منهــا احوال اعقبت فيها الوحشة من الانس والكدر من الصفاء نحـو اعقاب التنعم بالحبيب بالتالم لفراقه واعقاب التنعم بالشبيبة بالتالم لفراقها واعقاب التنعم بالوطن المؤنس بالتالم لفراقه واعقاب التنعم بالزمن المسعدبالتالم لفراقه. ومنهااحوال كان الجور فيها وضع موضع العدل والاساءة موضع الاحسان فهي امـور على غير ما يلائم ذا الفضل . وكثير ما كان ابو الطيب المتنبـي يقصـد هـــذا الضرب والذي قبله من الشاجية فكـان ذلك ممـا حسن موقعه من النفوس اذ اكثر الناس لا يخلو عن بعض هذه الاحوال » .

ورغم هذه النغمة الشاجية فان حكم المتنبي جاءت صورة مـن نفسه خاليـة من كل دعوة للذل والانخذال والتواكـل والتشاؤم . وسيظل ابو الطيب المتنبي في نظـر الاجيال ، رغم جوانـب الغلو البلاغية في شعره رمزا ادبيـا رائعا للاعتداد العربي بالنفس وللهمة العربيـة وللاباء العربي .

تونس

صدر حديثا

التراث الفلسطيني والطبقات

تاليف

علي الخليلي

« غايـة هذه الدراسة ، في الاساس ، مساهمتها في تكريس التـراث الشعبي العربي الفلسطيني داخل نمو الثورة وتصاعدها .. واداة الدراسة المركزيـة هي الامثال الشعبيـة الفلسطينية باعتبارهـا جـزءا اساسيا من التراث الشعبي الفلسطيني ... وهـي تؤكد القدرة الفذّة لمجتمعنـــا العربـي الفلسطيني على الصمود والحيوية والنمو والتطـور طالمـا هـــو محتفظ بتراثه الشعبي ، هذا التراث الـذي تحـاول الامبرياليـة والصهيونية ، متسانـدتيـن متلاحمتين ، قتله وتدميره ، انكـارا لوجود شعب فلسطينـي .. ولذلك فان كل احياء واثراء ونشر وتعميـق وتحليل للتراث الشعبـي الفلسطيني بكافة اشكاله والوانـه هو دعم للثورة وتكريس لها ، كما انه اضاءة للمنافـي الفلسطينية ولحمة لها .. »

ـ من المقدمة ـ

منشورات دار الآداب